العرب
السبت 2021/09/04
السنة 44 العدد 12169

تارا خليل رسامة الخيارات الصعبة للطبيعة والناس

فنانة عراقية تسرد أبجديات الأمكنة بمباهجها التراثية والاجتماعية

تارا خليل ابنة مدينة كركوك العراقية الغنية بثرواتها وأبنائها وفنانيها، لا ترتوي من الرسم، تمارس عشقها الإبداعي بغزارة لونية تعتزّ بها، وتتقن مرارة قطع المسافات الطويلة. فهي تمتلك الخيارات الصعبة وتمضي فيها محاولة التأكيد على ذاتها، ومحدّدة ملامحها بفرشاتها الحالمة وبوضوح ألوانها وعبر موجوداتها التشكيلية وقدرتها على تطويعها.

محطات زمنية اقتنصت من المكان أجمل ما فيه

غريب ملا زلال
كاتب سوري

تحدّد الفنانة العراقية تارا خليل قيمها الفنية وتضعها في لوحتها لا كظاهرة فنية، بل كطوفان رموز وإشارات تنتشر في كل الاتجاهات، فتتحرك مؤثراتها الحسية على نحو متصل حينا، وحينا آخر على نحو متقطع، لتبقي إشاراتها وما تقدّمه من دلالات عن تفاعلات تجري في أقانيمها المرئية على نحو شبه صوفي بها تتوسّل سطوحها وما ينساب عليها من ألوان تمتلك حركيّة توزيعها، لتتحوّل إلى معطيات مشبعة بالتشخيص والحضور الإنساني.

> الفنانة العراقية تنقل بدقة رؤيتها لسحر الطبيعة والناس، مستمدة تجربتها من لغة الحياة اليومية ومن بيئة بلدها

الفنانة العراقية ترسم بمسؤولية وتترك أثر ذلك في كل ما ترسمه، فهي لا تفترض بيئة أو جغرافيا معينة، ولا مناخا مستوردا، ولا تصعد سلالم ليست لها، ولا تدخل واحة ما إلاّ بعد أن تلوّنها بشهيقها وزفيرها.

أبجديتها التي يمكن تلخيصها بالإنسان والطبيعة حاشدة بسحر ملوناتها، بها تنقل حقيقة مشاعرها ودقة رؤيتها، وبأشرعتها العائمة في واقعها الموضوعي تقود أشكالها بدقائق أمورها، فتلفت الأنظار من حولها، وتبني لنفسها بمعطيات مباشرة طريقا تكاد لا تجد نفسها إلاّ فيه.

وفي الوقت نفسه مشبعة بلمساتها وخطوطها وألوانها، وكأنها إيحاءات لذاكرة أمكنة لا يمكن الوصول إليها إلاّ بما تشمله من هواجسها وتطلعاتها، لا يمكن ثقبها إلاّ بما يساعدها من امتلاكها لرصيد يسمح لها بالظهور، فهي تحتاج دائما إلى قدر من الوقت لتضع خياراتها الكثيرة على المحك.

خيارات متعدّدة

خيارات خليل الفنية لا مستقر لها، لكن لها هروبها وغناها، لها فراغها ورؤاها، لها تقنيتها وإرهاصاتها، وهي في ذلك تضع خياراتها على نحو يشي بالتأمّل الشديد، وبحاجتها الماسة إلى البحث في ذاتها الملتهبة عن أفق ضامن لاحتمالات مغايرة، احتمالات تكون اللحظة فيها مبهرة، وفي مسار قد يستدعي زمانا ومكانا آخريْن للوحة التي تحتمي بالأسئلة، وتدافع عن حلمها الذي مازال يهرب في الزحام.

حلمها حاضر دائما في الذاكرة الإنسانية، ومختزل بحميمية في عودة الأشياء إلى ذواتها، إلى أشلائها الهاربة من خبايا ملمسها، إلى انتماءاتها التي لا حدود لها، فكل المؤشرات وبعيدا عمّا يسكن في الذاكرة تتداخل على نحو فيه تتيه اللحظات مع التداعيات، لكن قدرتها على التعبير تمنحها مناخا يضمن قيمها المعرفية والجمالية.

الفنانة العراقية ترسم بمسؤولية وتترك أثر ذلك في كل ما ترسمه، فهي لا تفترض بيئة أو جغرافيا معينة، ولا مناخا مستوردا، ولا تصعد سلالم ليست لها، ولا تدخل واحة ما إلاّ بعد أن تلوّنها بشهيقها وزفيرها.

أبجديتها التي يمكن تلخيصها بالإنسان والطبيعة حاشدة بسحر ملوناتها، بها تنقل حقيقة مشاعرها ودقة رؤيتها، وبأشرعتها العائمة في واقعها الموضوعي تقود أشكالها بدقائق أمورها، فتلفت الأنظار من حولها، وتبني لنفسها بمعطيات مباشرة طريقا تكاد لا تجد نفسها إلاّ فيه.

وبالفعل، فوضوح أعمالها قد يكون أشبه بالاستراحات التي تثبت التوازنات للإنسان، وتثبت لها الرغبة في طموح يبدو للوهلة الأولى بعيد المنال، وكأن بقاءها في حالة حالمة دائمة تجعله في متناول ريشتها، فهي لا تترك حلمها، ولا تخرج من جلدها، تقدّم تركيباتها بما تحتمل، لا زوائد تثقل كاهلها، ولا قدر يخفّف حيويتها.

وتلك الحيوية بعنفها ورقتها تحدّد ملامح تجربتها، التجربة المستمدة برمتها من مناخاتها وبيئاتها وطبيعة بلادها، فتسقط كل ما تعيشه وما تشاهده من عادات وتقاليد على فضاءاتها لتكون شاهدة عليها، وعلى السر المعلق بين جوانحها.

خصائص شكلية

لوحات تارا خليل محطات زمنية مقتنصة من المكان الذي تعيش فيه، وبذلك تكتسب احتكاكا مباشرا مع إيقاعات واقعية ما زالت تنبض بين أصابع أمثالها وأمثال شكران بلال؛ حيث تتقاطع تجربتهما في نقاط كثيرة ضمن الأجواء ذاتها، وما تستعيدانه من موضوعات بيئية وعناوين محلية ومضامين اجتماعية.

فخليل بخصوصيتها تلك تؤكّد أن الفن مسؤولية لا محيد عنها، وهي التي تمتلك كل مواصفات هذه المسؤولية، فهي مرتبطة بأبجدية المكان بكل مفاهيمها التاريخية والتراثية والاجتماعية، وتسقط كل ذلك على مفارق زمنية أعمالها، حتى تظهر ملامحها كملامح عاشقة مسافرة في الحلم أبدا.

الفنانة العراقية لا تغادر أعمالها، ولا أمكنة الإنجاب فيها، فهي تتدفق بصمت وبكل وداعة من نبضات فرشاتها، ومن أقاليم حلمها الراقد بهدوء، وبثقة وطمأنينة بين بقعها اللونية التي تمدّدها في أنحاء اللوحة كلها، وتسيطر عليها إلى درجة التلاشي، فأمامها بناء وحشود ومفردات تشتغل عليها بالشكل الذي يضعها أمام نفسها لتواجه الحقيقة وخطورة لمسها، الأمر الذي قد يجهض أحلامها.

ولهذا فهي في أدقّ حذرها وهي تقترب من ذاتها، أو من الذات الإنسانية وفهمها، أو من التراث البيئي حيث الفصل في تثبيت الحقائق، والذي يجعلها تبحث عن المعلومات المرتبطة بأفكار جديدة وتلتقطها ثم تعالجها بأسلوب معرفي قائم على أساس من الاستكشاف والتنوّع.

وفي ضوء ذلك كله تختبر الواقع بمهارتها، وتكسبه قرابة زمنية، وإسهاما خاصا في صقل فهمها لخصائصه الشكلية، فهي تعطي أهمية قصوى للون والبهجة الانفعالية فيه، لا كقيمة موضوعية بل كقيمة جمالية لها أبعادها المعرفية والثقافية، لها إسهاماتها في جذب اهتمام عين المتلقي على نحو نشط وفعال، وتجعله يتلقى ويفسّر ويتذوّق تبعا للمنحى الذي تمضي فيه، فعمليات التلقي عندها مبنيّة على تفاعلات لها تأثيراتها في أهمية اكتساب الخبرة الجمالية.

ملامح عاشقة ومسافرة في الزمان والمكان

وإضافة إلى حركة الناس المألوفة والطبيعة المحاطة بمسافات خاصة تلتقط خليل بعناية ملامح من حولها، فاشتغالها على البورتريه يأخذ حيزا كبيرا من تجربتها، مؤكّدة على أهميتها في تغيير الذائقة الجمالية، فهي تستأثر شكلا خاصا بها، به تقترب من لغة الحياة اليومية، فلا وجود لانزياحات لوجوهها، بل تحيط بها بأشكال تمتلئ حيوية وحياة، وكأنها تقتفي حركة الروح فيها، وتخفّف من الضغط الممتد في أعمدتها الخاصة.

مركز الفن الحديث بتطوان يجمع ذاكرة التشكيل المغربي في معرض دائم

في معرض دائم يربط بصمات الماضي بالحاضر متطلعا إلى مدّ الجسور نحو المستقبل، يواصل مركز الفن الحديث بمدينة تطوان المغربية، بامتدادات رسالته التشكيلية الراسخة في ذاكرة الإنسان، رحلته الحضارية التي تنهض بالمعاني الثقافية بين الشعوب والمدارس والاتجاهات الفنية المختلفة.

تطوان (المغرب) – لا زال مركز الفن الحديث بتطوان، منذ إحداثه في العام 2013، يضطلع بدور الحاضن والفاعل كذاكرة تشكيلية حية تمّد جسور الثقافة المغربية بين الماضي والحاضر في حالة من التوازن والتمازج تضمن للزائر رحلة بصرية قلما يجدها في فضاءات مماثلة.

ويعدّ المشروع أحد أهم رموز الذاكرة المشتركة والتعاون بين إسبانيا والمغرب، ويوجد ببناية محطة القطار القديمة بتطوان التي صمّمها المهندس المعماري خوليو رودريغيث رودا في مايو من العام 1918، والتي تجمع في أسلوبها بين المعمار المغربي الأصيل والمعمار الإسباني، وتم تأهيلها وتحويلها إلى مركز للفن الحديث في إطار التعاون الدولي بين وزارة الثقافة المغربية وحكومة الأندلس بوساطة من مؤسسة الثقافات الثلاث.

وفي جولة بالمركز الذي يحتوي على أكثر من مئتي لوحة تشكيلية وتسع عشرة منحوتة تطفح بحرارة الحياة، يقف المُشاهد على مجموعة من الأعمال التي تمثل التجربة الفنية التي احتضنتها مدينة تطوان عبر تاريخ الفنون التشكيلية المغربية، حيث إن المدينة كانت ولا تزال ملتقى للعديد من الفنانين الذين توافدوا عليها منجذبين بجمالها ومركزها الإبداعي المتميز.

وساهم في ترسيخ هذا المسعى إحداث المدرسة الإعدادية للفنون الجميلة بتطوان في العام 1945، من قبل مديرها الأول الفنان الغرناطي ماريانو برتوتتشي، وتأسّست بصفة رسمية في العام 1946.

وينقسم المسار المتحفي إلى أربعة فضاءات حسب التسلسل التاريخي وموضوعاتها المختلفة، وذلك عبر أعمال تحاول تقديم نظرة استعادية للذاكرة التاريخية المشتركة بين الأندلس والمغرب، وتقدّم للزائر رحلة بصرية وفنية تمتد لحوالي نصف قرن من الزمن، إذ تحتوي القاعة الأولى من البناية على نماذج فنية من مدرسة تطوان التشكيلية، وتضم المؤسّسين الرواد من سنة 1913 إلى سنة 1956، من بينهم الفنانون مريانو بيرتوتتشي ومحمد السرغيني وكارلوس كاييكوس.

وتحتوي القاعة الثانية على أعمال الفنانين المغاربة الذين أسّسوا للهوية التشكيلية المغربية من سنة 1956 إلى سنة 1979، ومنهم المكي مغارة وعبدالله الفخار وسعد بن سفاج. وتحاور أعمالهم الذاكرة المشتركة ومحاولة تجاوز التقاليد التشكيلية المنتمية إلى مرحلة الحماية الفرنسية، كما عملوا على تحديث التعليم الفني المغربي كأساتذة للمعهد الوطني للفنون الجميلة بتطوان، بجانب مدرسة الدار البيضاء التشكيلية التي أحدثت في العام 1952.

وعرف هذا الجيل بتنوّع أبحاثه وتعدّد اهتماماته الهادفة إلى إشعاع التشكيل المغربي، إذ توّجت مجهوداتهم وطموحاتهم بتأسيس الجمعية المغربية للفنون التشكيلية في العام 1972، التي لعبت دورا محوريا في التعريف بالفن المغربي على المستوى الدولي.

وتضم القاعة الثالثة التي انفتحت أعمالها على معارض الربيع، أعمالا من سنة 1979 إلى سنة 1993. وانطلقت هذه التجربة بحدث مهم تجلى في إقامة معرض الربيع سنة 1979، الذي نظمه أربعة فنانين، ثلاثة منهم حديثو العهد بالتخرج من معاهد أوروبية مختلفة، وكانت للمعرض العديد من الأهداف، في مقدّمتها انفتاح الفن على الجمهور الواسع من خلال العرض في الهواء الطلق بساحة الفدان.

وتحتوي القاعة الرابعة على التوجهات الجديدة للتشكيل منذ العام 1993 وإلى الآن، وتضم أعمال العديد من الأسماء الفنية، من بينها عادل الربيع ومونية التويس وبلال الشريف، قوامها التنوّع في التجارب والأساليب، ورغم خصوصية مشروعها المفاهيمي، إلاّ أنه يمكن اعتبارها استمرارا لتراكم الماضي وانطلاقة لجيل جديد من الاكتشاف التشكيلي المنفتح على الفن العالمي المعاصر المطبوع بالتحرّر الفكري و التقني.

بوزيد بوعبيد

المعرض يعكس الحساسيات الجمالية لأجيال مغربية متلاحقة

ويؤكّد مدير المركز، الفنان بوزيد بوعبيد أن من أهم الإيجابيات التي أغنت جمالية مدينة تطوان تنوّع عنصرها البشري، إذ استقطبت هذه الحاضرة سكان الجبل والريف والأندلس وفاس والجزائر واليهود والمسيحيين، وهو التنوّع الذي أنتج مجتمعا متحضرا ثقافيا واجتماعيا وفنيا.

وعن المركز يقول "هو يروي ويشخّص تراثا بصريا عريقا لمدينة تطوان وفنونا تراثية لها هوية أصيلة ومتميزة راكمتها عبر قرون من التطوّر والارتقاء ازداد بهاء في العقود الماضية".

ويضيف "رغم الاختلاف والتباين في ما جسّدته الأعمال الفنية التي تؤرّخ للتجربة التشكيلية بتطوان بأجيالها المتعددة، فإنها تعكس الحساسيات الجمالية والرصيد الإبداعي لأجيال متلاحقة، قدّمت مجتمعة قواسم مشتركة لهوية فنية مغربية أضحت مرجعية ليس في خارطة العالم العربي، ولكن أيضا في خارطة العالم الفنية".

وبوزيد بوعبيد من مواليد 1953 بتطوان، تخرّج من مدرسة الفنون الجميلة سنة 1975 قبل أن يكمل دراسته الأكاديمية بإسبانيا وبلجيكا، وهو من القلائل الذين خضعوا لتدريب في علم المتاحف وآخر في مجال ترميم وإصلاح الأعمال الفنية، وقام بتدريبات ميدانية وزيارات متعددة للمتاحف الحديثة والمعاصرة في عدد من البلدان الأوروبية أغنت تجاربه ومعارفه وأهلته لإدارة متحف تطوان للفن الحديث.

وهو إلى جانب ذلك رسام محترف ارتبط اسمه بالجيل الجديد لمدرسة الفنون الجميلة بتطوان، كما ارتبط اسمه ولمع في "معرض الربيع" بتطوان نهاية السبعينات وبداية الثمانينات من القرن الماضي لتتوالى معارضه الفردية والجماعية بعدها.

وتحمل أعمال بوعبيد الفنية هوية متجددة ومتفرّدة، وهي تتردّد ما بين التشخيص والتجريد، ما منحه لونه التشكيلي الخاص، وشكله الاستثنائي وظله الممتد في تجارب الأجيال اللاحقة.

ويستقطب مركز الفن الحديث بتطوان إلى جانب معرضه الدائم العديد من الورشات التربوية والمعارض المحلية والدولية، إلى جانب العديد من الأنشطة الفنية التي تهدف إلى تنمية ونشر الوعي الثقافي بين الأجيال، بالإضافة إلى تشجيع الطلبة على إثراء معلوماتهم وتنمية حب الاستطلاع لديهم عن طريق إقامة ندوات و لقاءات مفتوحة.

رحلة بصرية وذاكرة تشكيلية حية